

آياتُ العزّة في القرآن الكريم



آياتُ العزّة في القرآن الكريم تعطينا - من جانبها - معاني العزّة الحقيقية والأخرى الوهمية المصطنعة، أو العزّة الأصيلة والأخرى المُنْتَحلّة، فماذا يطالعنا هنا؟

1- العزّة النامّةُ الكاملةُ المطلقة هي الأساس وهي ﷻ تعالى كلّها:

قال تعالى: ﷻ أَيْدِيَتَغُوثَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ﷻ
(النِّسَاء / 139).

وفي الآية نفيٌ صريحٌ للعزّة أو الاعتزاز بغير ﷻ تعالى، إذ لا تُبتَغى العزّة ولا تُطلب إلا من مصدرها الأساس، وإلا من حيثُ هي كاملةٌ مكتملة لا تشوبها ذلّة.

2- العزّة خُلِقُ ﷻ الذي يتخلّق به أنصارُ دينه:

قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلَّامَّةِ مَنِّينَ﴾ (المنافقون/ 8).

هي ١ تعالى منيعها ومصدرها وأساسها، وهي للرسول 6 بصفته مُمَثِّلًا للسماء في الأرض، ومُتَخَلِّقًا بأخلاق ١ في أبهى صُور التخلُّق وأكملها، وهي للمؤمنين المتأسِّين برسولهم 6، والمتخلِّقين أيضًا بأخلاق ١ جلَّ جلاله.

وبموجب هذه النظرة الثلاثية للعزَّة، وهي للحقَّ نظرةٌ واحدة، فإنَّنا نرى أنَّ القرآن لا يُجزِّئُ العزَّة إلى ثلاثة أصناف: عزَّة ربَّانية، وعزَّة نبويَّة، وعزَّة إيمانية، وإنَّما هي عزَّة واحدة متحدة: أصلُّها عزَّة ربِّ العزَّة، وفرعُها ما يستمدُّ منها من عزَّة هنا وهناك، والأصلُّ تتبعُها الفروع!

3- ارتباطُ (العزَّة) بـ(الحكمة):

قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران/ 6).

ترابطُ العزَّة بالحكمة ترابطٌ جدليٌّ، إذ لا عزَّة إلا بحكمة ترافقها وتضعها مواضعها الصحيحة، ولا حكمة متعالية إلا بعزَّة تثبَّت أقدامها في حركة الحياة، واستيحاءً من ذلك يفهم الأعزَّاء معنى الاقتران بين شرط عزَّتهم وبين شرط حكمتهم، حتى يكون كلُّ شيء في نصابه، ولئلا تكون العزَّة - بما تعنيه من معاني الإباء والغلبة - تهوُّرًا واستعلاءً أو استكبارًا في الأرض.

4- ارتباطُ (العزَّة) بـ(القُدرة):

قال جلَّ جلاله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ أَخْذًا عَزِيزًا مُّقْتَدِرًا﴾ (القمر/ 42).

لا يكفي في الغلبة كسر شوكة المغلوب أو المنتصر عليه، بل لابدَّ أن تكون العزَّة قوَّة فاهرة لا يقوم لها شيء، وأشكال الأخذ القرآني للأُمم المكذِّبة والمعاندة العاصية كاشفة عن معنى العزَّة الغالبة والقاهرة والمهيمنة على القوى كلها (راجع ذلك في إغراق قوم نوح (ع) بالطوفان، وإغراق فرعون بالبحر، وإهلاك الأُمم المعاندة العاصية كعاد وثمود وغيرهما).

5- (العزَّة) موهبة ربَّانية:

قال تعالى: ﴿قُلِ اللّٰهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِرَيْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَي كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران/ 26).

مثلما (العزّة) بيده، (الإذلال) أيضاً بيده، يهبُ الأُولى لمن يستحقّها من الناس، وينزعها عمّن لا يليق بها ولا تليق به، فيبقى أبدَ الدهر ذليلاً، وإن تَوَسَّلَ بوسائل العزّة المادّية كلاهما. قال تعالى في العصاة من بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ آلَ لُوطٍ إِيَّاكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ (الأعراف/ 167).

6- (العزّة) ليست بالكثرة:

قال عزّ وجلّ عن لسان المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَا تَنْزِلْ عَلَيْنَا مَدِينَةٌ لَّيُخْرِجَنَّ عَنْ الْأَغْزٰى مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ (المنافقون/ 8).

ويريدون بالأعزّ (الأكثر عدداً)، والأذلّ (الأقلّ أنصاراً)، وهو حسابٌ مَنْ لا يحسب للغيب حسابه، ولا يُدخلُ تعالى في حسابه، ولا يرى أبعدَ من قوّة عدديّة محتشدة يحسب أنّها تمنع المعجزات، وهي ليست قادرة حتى على الدفاع عن نفسها إذا جاء أجلها، أو قُوِّلت بقوّة العزّة الربّانية من قبل أنصارها وجنوده الذين هم الغالبون.. جيشُ أبرهة الحبشي أُبِيدَ عن بكرة أبيه بطيرٍ من أبابيل ترميهم بحجارةٍ من سجّيل، وجيشُ المشركين في بدر يُهزم على الرغم من قلّة عدد المقاتلين في الصفّ الإيمانيّ، والأمثلة على ذلك كثيرة.

إنّ حديث أو حوار صاحب الجنّتين (البستانين) مع ذلك الرجل الفقير المُعَدَم هي قصّة الأنظمة والحكومات مع الأُمم والشعوب: ﴿أَنَّا أَكْثَرُ مِنْكُمْ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الكهف/ 34)، مقياسُ العزّة عندهم كثرة الأتباع والمؤيِّدين والمجندّين ليس أكثر.

وهذا يقودنا إلى الحديث عن (العزّة الوهميّة المصطنعة أو المُنتَحَلَة) ومثالها في القرآن (عزّة فرعون) التي راهن عليها (سحرتّه) في بداية المباراة مع موسى (ع): ﴿قَالُوا بِعِزَّتِكَ لَأُفْرَعُونَ إِنَّنَا لَنَدْحَنُ الْغَالِبُونَ﴾ (الشّعراء/ 44).

وما إن تهاوت فُنونهم السحريّة، ومهاراتهم المادّية، وقواهم العدديّة، أمام ضربة موسى القاضية،

حتى عرفوا أنَّ العزَّة ليست التي تصوَّروها عند (فرعون) من خلال ظاهر قوَّته، وواجهات سطوته، وإنَّما هي التي استمدَّها موسى (ع) من ربِّ العزَّة وهو يلقي عصاه بكلِّ ثقة واطمئنان.

ولأنَّهم (عُقلاء)، قادرون على التمييز بين عزَّتين: عزَّة أصلية لا تتزلزل، وعزَّة مُختلَقة متزلزلة، عزَّة شكلية، وعزَّة ثابتة لا تتزعزع، لم يتردَّدوا للحظة في الانحياز إلى عزَّة تمسَّك بها موسى 7 فكانت الغلبةُ لصالحه، فيما لاذوا بعزَّة السلطان التي تهاوت عندما ابتلعت عصا موسى كلَّ سطوته وجبروته و(عزَّته)، وليس عصيَّ وحبال السَّحرة فقط!

7- (العزيرُ) الوجهُ في قومه:

يصف القرآنُ زوج (زليخا) بأنَّه عزير، بقوله تعالى: ﴿قَالَ تَرْجُونَ الْمَرْأَةَ الَّتِي كَانَتْ آسَافَ الْأَيُّهَا الْوَحِيدَ﴾ (يوسف/ 51).. وسواء أكان وزيراً للداخلية، أم مديراً للشرطة، أم رمزاً كبيراً من رموز السلطة أو المجتمع، فإنَّه (عزيرُ الجانب) له مقامُ المرموق، وموقعُ المميَّز الذي يُمكنه من بسط نفوذه في حدود سلطته.

ومثُلُ ذلك قول إخوة يوسف (ع) مخاطبينه: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا﴾ (يوسف/ 78)، وإنَّما خاطبوه بـ(العزير) لموقعه السلطويِّ النافذ حيث كان يشغل منصب (وزير المالية والاقتصاد) يومذاك.

وتبقى صفة (العزير) هنا مُستمدَّة من الموقع والعنوان والرتبة أكثر منها (العزَّة) الربَّانية التي هي محورُ حديث هذا الكتاب، وإلَّا إنَّنا عندما نتحدَّث عن يوسف (ع) فإنَّنا نتحدَّث عن عزَّته: عزَّته باٍ الذي مَكَّن له في الأرض، وعزَّته بصفته وزيراً، والأولى هي التي يبحث عنها يوسف (ع) ويحرصُ عليها، بل ويسحبها إلى موقعه الإداريِّ أيضاً، ليكون عزيراً باٍ دائماً، لا عزيراً بموقع يأتي ويذهب.

8- الملوكُ يهابون عزَّة الأعزَّاء:

عندما قالت بلقيس (ملكة سبأ): ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلَهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل/ 34)، أيَّد القرآنُ وجهة نظرها بالقول: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، الأمر الذي يشير إلى أنَّ (عزَّة الأعزَّاء) بالإيمان

خاصّة، هدفٌ من أهداف الملوك والحكّام والسلاطين، أي إنّهم يستهدفون إذلال الأعزّاء لتبقى العزّة الوحيدة بأيديهم، فلا يهابُ الناسُ سواهم، ولا يرمقون بعين الإكبار والإجلال غيرهم، ولئلا ينافسهم في عزّتهم عزيز، وهم يدركون تماماً أنّ (عزّة الإيمان) أقوى من (هيبة السلطان).

ورد في الحديث عن النبيّ (ص)، كما رُوِيَ عنه: «مَن أراد عزّاً بلا عشيرة، وغنىً بلا مال، وهيبةً بلا سلطان، فلينتقل عن ذلكَ معصية الله إلى عزّ طاعته، فإنّ وجهه ذلكَ كلّّه» [1].

وأوحى تعالى إلى داود (ع): «يا داود! إنّني وضعتُ خمسة في خمسة، والناس يطلبونها في خمسة غيرها فلا يجدونها: إنّني وضعتُ العزّ في طاعتي وهم يطلبونه في خدمة السلطان، فلا يجدونه...» [2]، وبهذا فحتى السلطان نفسه يُعرف أو يعلم جيّداً أنّ (هيبته) سطحيّة، وإنّ (عزّته) وهميّة، وإنّّه ما أن يُخلعَ من منصبه أو عرشه حتى يغدو ذليلاً فزوعاً من جميع الأوصاف والنعوت، حتى من كلمة (عزيز)!

[1] - ميزان الحكمة، محمّد الري شهري، ج6، ص291.

[2] - بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج78، ص453.